الفصل الثالث

جوانب البارودى

١ — آثاره

١ — خلف البارودى لنا ديواناً ضخماً من الشعر ، عكف على تنقيحه وترتيبه ، ومراجعته وشرح غريبه ، والتعليق عليه قبل وفاته ، وقد قامت زوجته[١] بالإنفاق على طبعه ، ولكن لم يطبع منه أول الأمر إلا جزءان انتهيا إلى أول قافية الميم .

ثم فكرت وزارة المعارف فى طبعه فكلفت السيدين على الجارم ، ومحمد شفيق معروف بشرح غريبه ، وضبطه ، وتصحيحه وقد صدر من هذه الطبعة جزءان كذلك أولهما فى سنة ١٩٤٠ ، وثانيهما فى سنة ١٩٤٢ ، وقد وصلا إلى قافية الكاف ولا تزال بقية شعر البارودى فى حاجة إلى الإخراج والطبع . ومن المؤسف أن يتقاعس أدباء مصر عن أداء هذا الواجب لباعث الشعر العربى من جدثه .

٢ — خلف البارودى كذلك مختارات من الشعر فى أربعة أجزاء كبيرة اختارها من عيون الشعر العباسى لثلاثين شاعراً من أكابر الشعراء أمثال بشار ، وأبى نواس ، ومسلم بن الوليد ، والعباس بن الأحنف ، وابن المعتز ، وأبى العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس ، والبحترى ، وأبى تمام ، وأبى فراس ، ومهيار الديلمى ، والمتنبى ، وأبى العلاء ، والأرجانى ، والأبيوردى وغيرهم .

وقد شرحها البارودى وعلق عليها . وقامت زوجته بطبعها على نفقتها بعد

---

(١) هى زوجته الثانية السيدة أمينة هانم سامى تزوجها فى المنفى وهى كريمة يعقوب باشا سامى أحد الوزراء والثوار العرابيين فقد نفى مع من نفى إلى سيلان وأدركته المنية فى خلال سنوات النفى فدفن هناك .

وفاته تخليداً لذكراه . وهذه المختارات تدل على حسن ذوق ، وبصر بجيد الشعر كما يدل تعليقه عليها على سعة اطلاع ، وغزارة مادة .

٣ — ويظهر أن البارودى خلف مختارات فى النثر سماها « قيد الأوابد » جمع فيها عيون الرسائل والخطب والتوقيعات . بيد أن هذه المجموعة للأسف لم تر النور حتى اليوم ، ولا تزال فى حاجة إلى من يبعثها إلى الحياة .

٤ — هذا وللبارودى رسائل نثرية طريفة مثل تلك التى وصف فيها رحلته إلى المنفى ، ومثل مقدمة ديوانه . ولكن نثره يغلب عليه السجع والتكلف ، والغرام بالاستعارات والمحسنات ، فلم يحرره من قيوده وأغلاله كما حرر شعره . وتجد نماذج من هذا النثر فى أول ديوانه .

على أن الطابع العام الذى يستخلص من آثار البارودى هو أنه الشاعر الفريد صدح وشدا وسجل له الدهر جميل الصداح وشجى النغم .

٢ — مذهبه الشعرى

كان الشعر فى أخريات عصر المماليك يلفظ أنفاسه الأخيرة فلما أفاقت مصر على فجر النهضة الشاملة تردد الشعر بين المرض والعافية فكان يصح أحياناً وينتكس أحياناً كثيرة ، وهو فى حالة الصحة لا يبلغ مبلغ القوة والجزالة[1] . كل هذا والنهضة ماضية فى طريقها ، واللغة تدب فيها القوة شيئاً فشيئاً ، والمطابع تدفع بالكتب الأدبية القديمة ، والمدارس تبدد سدف الجهل والظلام ، والصحافة تكشف الطريق ، وتزيل ما به من أوضار وعوائق . ولكن الشعر ظل على حاله من الضعف لم يقف على قدميه بعد ، وكان مكبلا بقيود ثقيلة ، يتمثل فى شعر الندماء أمثال على أبى النصر ، وعلى الليثى . ولكن شاء الله أن يبعث من ينهضه من كبوته ، ويقيله من عثرته ، ويلقى بهذه الآفات والأوضار بعيداً ، ويعيد للشعر قوته ومجده ، وكان ذلك على يد البارودى .

---

(١) يتمثل هذا فى شعر صفوت الساعاتى وقد ترجمنا له فى كتابنا « فى الأدب الحديث ج ١ » .

سلك البارودى فى إثقافته الأدبية، وشحذ ملكته الشعرية الطريق الطبيعى، وذلك بحفظ الجيد من كلام العرب، واستظهار حكمهم وأمثالهم، ودراسة تاريخهم وعاداتهم، فلا عجب أن جاء مذهبه الشعرى متأثراً بمذهبهم فهو يرى « أن الشعر لمعة خيالية يتألق وميضها فى سماوة الفكر، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب، فيفيض بألألئها نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان، فينبعث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك، ويهتدى بدليلها السالك، وخير الكلام ما ائتلفت ألفاظه، وائتلقت معانيه، وكان قريب المأخذ، بعيد المرمى، سليماً من وصمة التكلف، بريئاً من عشوة التعسف، غنيًّا عن مراجعة الفكرة، فهذه صفة الشعر الجيد، فمن آتاه الله منه حظًّا، وكان كريم الشمائل، طاهر النفس، فقد ملك أعنة القلوب، ونال مودة النفوس، ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس، وتدريب الأفهام، وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التى ليس وراءها لذى رغبة مسرح، وارتباً[1] الصهوة التى ليس دونها لذى همة مطمع »[2].

وتعريف البارودى للشعر غامض؛ لأنه لفه فى ثوب كثيف مزخرف بالمجازات والاستعارات، ولم يحدده تحديداً علميًّا، وهو يعنى أنه خطرة ذهنية ينفعل لها الفؤاد، فيتحرك اللسان معبراً عن خلجاته، والخطرة الذهنية تأتى مثلا من نظرة إلى شىء جميل، أو شىء يبعث الرثاء والأسى، وقد تكون خطرة ذهنية مجردة عن الأثر الخارجى، وهذا التعريف يتمشى مع مذهب العرب فى الشعر وهو أنه « لمعة خيالية » تومض له إيماضاً، فتأتى هذه الخطرات الخيالية غير متصلة، وغير مرتبط بعضها ببعض فى حلقة متماسكة، أو قصة محبوكة الأطراف أو خيال ممتد طويل فى ملحمة من الملاحم أو مسرحية من المسرحيات تتابع حوادثها، وإنما هى ومضات تتألق تألقاً، فيتضح المعنى الجزئى تمام الوضوح فى بيت أو أبيات ضمن قصيدة لا تربطها وحدة فكرية[3].

---

(١) ارتباً : اعتل. (٢) مقدمة ديوان البارودى من إنشائه.

(٣) لقد ناقشنا هذا المذهب وبينا محاسنه وما يؤخذ عليها، ودافعنا عن وجهة نظر العرب فى الشعر فى كتابنا « النابغة الذبيانى، الفصل الثانى » وراجع
Modern Trends In Islam, by Gibb. p. 6-11

والشعر الجيد فى رأى البارودى « ما كان قريب المأخذ ، سليماً من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنيًّا عن مراجعة الفكر » وهذه صفة الشعر الغنائى ، وهى سمة الشعر العربى غالباً ، ليس فيه تعقيد الفكرة ، وحشد القضايا المنطقية ، والفكر المجرد عن الشعور والإحساس والمعانى المتوغلة فى العمق ، والآراء الفلسفية ، كما نرى ذلك أحياناً عند أبى تمام والمتنبى ، وأبى العلاء كثيراً ، وكما نراه مذهباً من مذاهب بعض شعرائنا فى العصر الحاضر . والشعر — فى الحق — ليس فلسفة ولا منطقاً ، وحسب الشعر أنه ينادى القلوب ، ويهز العاطفة ، وتطرب له النفس وليس معنى ذلك أن يكون الشعر أجوف خالياً من المعانى ، وإلا كان هراء .

ويرى البارودى أن وظيفة الشعر هى « تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام ، وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق » . وقد ردد هذه المعانى فى شعره . بيد أن الشعر قد لا يؤدى وظيفة ما إلا التعبير عن شعور الشاعر ، ثم إن البارودى لم يفطن إلى كل أغراض الشعر ، وما يمكن أن يستخدم فيه ، ولكننا لسنا بصدد هذه الأبحاث الآن ، وبحسبنا أن نقرر هنا أن البارودى فى هذا التعريف الموجز يعبّر عن مذهبه الشعرى ، وقد راعاه إلى حد ما فى ديوانه ، ولم يخرج عنه إلا قليلا .

وعلى الرغم من أن البارودى كان مطبوعاً على قول الشعر ، لا ينتزعه انتزاعاً ، ولا يتعسف فى نظمه ، بل يتدفق على لسانه تدفقاً ، وتشعر وأنت تقرؤه أنه يجرى فى رفق وهوادة ولين ، غير قلق ، أو مضطرب ، أو متكلف ، فإن البارودى كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب وصقل ، وجهد متصل ، وتحسين مستمر ، وأن الطبع وحده لا يكفى ؛ ولذلك كان يتعهد شعره بالتهذيب والرعاية . فقد روى أنه رتب ديوانه عقب عودته من المنفى ، وأعاد النظر فيما قاله من القصائد ، وحذف الأبيات التى لم ترقه حتى لا يخلف للأجيال القادمة إلا الشعر المصقول لفظاً ومعنى :

لم تبن قافيـــة فيه عـــلى خلل ... كلا ؛ ولم تختلف فى وصفها الجمل
فلا سناد ، ولا حشـــو ولا قلق ... ولا سقوط ، ولا سهو ، ولا علل[1]

---

(١) السناد عيب من عيوب الشعر يطرأ على ما قبل الروى وهو خمسة أنواع : منها اختلاف الردفين فى القافية مثل « عين بكسر العين ، وجين » إذا جاءتا قافيتين فى بيتين متتاليين .

لا تنكر الكاعب الحسناء منطقه ولا يعاد على قوم فيبتذل

وكان يهتف بشعره قبل أن يخرجه للناس ، ويصغى إليه ليتبين ما فيه من عيوب الموسيقى ، وانسجام الألفاظ بعضها مع بعض ، والخلل المعنوى ، والقافية القلقة ، والحشو ، وغير ذلك من عيوب الشعر ، فيقول :

واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى الرامى[1]

فجاء شعره — والحق يقال — شعراً يأخذ بمجامع القلوب من حيث موسيقاه ، وتماسك أبياته ، وقوافيه ، وانسجام ألفاظه ، وانتقاؤه انتقاء خبير ملهم ، حتى صار كما قال :

يزيد على الإنشاد حسناً كأننى نفثت به سحراً ، وليس به سحر

وكان البارودى يتخير الألفاظ المناسبة للمعانى ، فيرق ويلطف فى مقام الرقة واللطف كأن يتغزل أو يعتب ، أو يصف منظراً جميلا ، أو مجلس أنس وسمر ، ويجزل شعره ويجلجل لفظه ويشتد أسره حين ينشد فى الحماسة والفخر والمديح ، وحين يصف البحر الهائج ، والريح الزفوف ، والحرب الضروس :

إذا اشتد أورى زندة الحرب لفظه وإن رق أزرى بالعقود فريده

إذا ما تلاه منشد فى مقامة كفى القوم ترجيع الغناء نشيده

فجاء شعره مما يلذ للإنسان أن ينشده بصوت مرتفع ، يترنم به ليطرب ، ويتأمل فى نغمه وموسيقاه فيلتذ ويعجب ، فلا بدع أن قال :

ولى كل ملساء المتون غريبة إذا أنشدت أفضت لذكر بنى سعد[2]

أخف على الأسماع من نغم الحدا وألطف عند النفس من زمن الورد

---

(١) فى هذا المعنى قال بعض الشعراء المتقدمين :

لا تعرضن على الرواة قصيدة ما لم تبالغ قبل فى تهذيبها

فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدوه منك وساوساً تهذى بها

وفى مثل هذا المعنى قال « بوالو Boileau » الناقد الفرنسى المشهور فى كتابه « فن الشعر » فقد قال :

Vingt fois sur le métier, remettez votre ouvrage,
Polissez-le sans cesse, et le repolissez.

(٢) بنو سعد : بطن من هوازن ، ومنهم حليمة السعدية مرضعة النبى عليه السلام ، وكان بنو سعد من أفصح العرب ، ولذلك أرسل النبى إليهم كى ينشأ على الفصاحة واللسن ، ويريد البارودى أن شعره يذكر الناس بأفصح العرب .

وعلى الرغم من كل هذه العناية ، والتهذيب والصقل ، فإن شعر البارودى لم يسلم من هنات ، بيد أنها لا تزرى به ولا تغض من شأنه . وإذا تتبعنا آثار البارودى وطبقنا عليها مذهبه الشعرى بدا لنا فى شخصيتين اثنين : شخصية الشاعر المقلد وشخصية الشاعر المجدد .

٣ ـ الشاعر المقلد

ا ـ الوقوف على الأطلال

وقف البارودى على الأطلال والدمن ، وأتى بشعر جاهلى الروح والمعنى ، والوجه والزى ، لا يمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة ، وهو لم يقله لأنه مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه ، والنهج الذى عليه أن يسلكه ، ولكنه يريد أن يمتحن شاعريته وهل فى استطاعته أن يحاكى القدماء حتى فى وقوفهم على الأطلال والدمن ، وكان يعبر عن ذلك بأنه من رياضة القول ، ولا شك أن هذا النوع من الشعر خال من العاطفة وفيه كثير من الصنعة والتكلف ، فلم يكن أمام البارودى أطلال ودمن تهيج شاعريته ، وتثير عبرته ، استمع إليه يقول :

ألا حى من أسماء رسم المنازل ... وإن هى لم ترجع بياناً لسائل
خلاء تـعـفـتْـها الروامس والتقت ... عليها أهاضيب الغيوم الحوافل(١)
فلأيا عرفت الدار بعد ترسم ... أرانى بها ما كان بالأمس شاغلى

إلى أن يقول :

فيا ليت أن العهد باق وأننا ... دوارج فى غفل من العيش خامل
تمر بنا رعيان كل قبيلة ... فما يمنحونا غير نظرة غافل
صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهبا ... بعيداً ، ولم يسمع لنا بطوائل(٢)
نسير إذا ما القوم ساروا غدية ... إلى كل بَـهْـمٍ راتعات وجامل(٣)

فأى أطلال وأى رسوم رآها البارودى فوقف عندها ؟ وأين مرت بهما رعيان

---

(١) تعفتها : طمستها ، والروامس : الرياح الطوامس للآثار ، والحوافل : جمع حافلة وهى السحابة الممتلئة بالمطر .

(٢) الطوائل : جمع طائلة وهى الوتر والثأر ، والمعنى : لم نقترف إثماً .

(٣) البهم : جمع بهمة وهى صغار المعز والضأن ، والجامل : الإبل .

القبائل ؟ وما هذه البهم والجمال السائمة ؟ اللهم . إنه التقليد ورياضة القول . وإظهار المقدرة على النظم فى مثل هذه الأغراض التى قال فيها القدماء أساتذة البارودى .

ب — النسيب

ونراه فى النسيب ووصف المرأة يعمد إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ، فهى تحكى الظبى فى كناسه[1] ، والبدر فى سمائه ، وهى مهاة ، وألحاظها سيوف باترات ، وقدها غصن يتثنى إلى آخر هذه القوالب الموروثة .

غصن بان قد أطلع الحسن فيه ... بيد السحر جُلّنّاراً ووردا
ما هلال السماء ؟ ما الظبى ؟ ما الور ... د جنياً ؟ ما الغصن إذ يتهدى
هى أبهى وجهاً ، وأقتل ألحا ... ظاً . وأندى خداً ، وألين قدا

حـ — شعر الصنعة

وقد قلد البارودى شعراء الصنعة ، وعصور الضعف ، فيقول مؤرخاً فى شعره كما أرخوا — ولكن هذا قليل جداً فى شعره من مثل قوله يؤرخ عودة الخديو إسماعيل من دار الخلافة سنة ١٢٨٩ هـ .

رجع الخديو لمصره ... وأتت طلائع نصره
وتهللت بقدومه ... فرحاً أسرّة عصره
فلتبتهج أوطانه ... بحلوله فى قصره
وليشتهر تاريخه ... رجع الخديو لمصره

١٢٨٩ هـ

واستعمل المحسنات البديعية أحياناً ولا سيما الطباق ، وإن لم يسرف فيها ، ولم تأت إلا عرضاً من مثل قوله :

يموت قلبى ويحيا حيرة وهدى ... فى عالم الوجد إن صدت وإن جنحت

---

(١) كناس الظبى : بيته .

د ــ المعانى والأغراض

سار البارودى فى أول أمره مقلداً للشعر القديم ، محاكياً له ، معارضاً أشهر قصائده ، متشبعاً بمعانيه وأخيلته ، مترسماً أغراضه من مدح ، ووصف ، وهجاء ، ورثاء ، وعتاب وفخر . . . إلخ . وقد حاكى القدماء فى أسلوبهم ، وبداوتهم ، وذكر ديارهم من مثل قوله :

يا سعد قل لى فأنت أدرى ... متى رِعان العقيق تبدو[1]
أشتاق نجداً وساكنيه ... وأين منى الغداة نجد

وقال ــ مع أنه يعيش فى مصر بعيداً عن نجد ، ووادى الغضا :

أين ليالينا بوادى الغضا ... ذاك عهد ليته ما انقضى[2]
كنت به من عيشتى راضياً ... حتى إذا ولى عدمت الرضا
أيام لهو وصبا كلما ... ذكرتها ضاق على الفضا

وهو مقلد فى المعانى كما هو مقلد فى الشكل والقالب ، ولا نستطيع أن نحصى معانيه القديمة لكثرتها ، ولكنى سأدل على نوعها ببعض الأمثلة كقوله فى الغزل معارضاً قصيدة أبى فراس الحمدانى التى مطلعها :

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهى عليك ولا أمر

فيقول البارودى :

طربت وعادتنى المَخيلةُ والسكر ... وأصبحت لا يلوى بشيمتىَ الزجر[3]
كأنىَ مخمور سرت بلسانه ... معتقة مما يضن بها التَّجْر
صريع هوى يلوى بىَ الشوق كلما ... تلألأ برق أو سرت ديم غر[4]
إذا مال ميزان النهار رأيتنى ... على حسرات لا يقاومها صبر

---

(١) العقيق : الوادى ، وكل مسيل شقه ماء السيل ، ومواضع بالمدينة والطائف واليمامة ونجد ، والمقصود هنا عقيق نجد . ورعان : جمع رعن (بفتح فسكون) وهو أنف يتقدم الجبل .

(٢) الغضا : شجر ، وخشبه من أصلب الخشب جمع غضاة ، ووادى الغضا بنجد .

(٣) المخيلة : الظن ، والمراد ذكريات الماضى ، ويلوى به : يذهب به .

(٤) الديم : جمع ديمة وهى السحابة التى يدوم مطرها .

يقول أناس إنه السحر ضَلّةً وما هى إلا نظرة دونها السحر(١)

ويقول مفتخراً من نفس القصيدة :

لهم عُمدٌ مرفوعة ومعاقل وألوية حمر وأفنية خضر
ونارٌ لنا فى كل شرق ومغرب لمدرع الظلماء ألسنة حمر

ويقول من الحكمة :

لعمرك ما حي وإن طال سيره يُعَدُّ طليقاً والمنون له أسر
وما هذه الأيام إلا منازل يحل بها سَفْرٌ ويتركها سفر(٢)

فهذه أغراض ثلاثة فى قصيدة واحدة ، لم يأت فيها بجديد من المعنى ، ففى الغزل يقول : إنه استخفه الطرب والشوق على حد قول أبى نواس :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب

وحاكى الأقدمين فى ذكره البرق والسحب ، فهذه الأشياء كانت مقبولة فى الشعر القديم لأنها تصف البيئة العربية ، وكان فى البرق والغيث حياة العرب القاطنين بالجزيرة ، فإذا لمع البرق ، أو هطلت السحب هلل الناس وفرحوا ، وإذا ذكر المحب محبوبته فى تلك الآونة ، فكأنه يريد أن يشاركها فى سرورها أو تشاركه فى سروره ، والسرور من الأشياء التى لا تتم إلا بالمشاركة ولا سيما مع الأحباب . أما فى بيئة البارودى فلا معنى للبرق ، ولا للسحب ، والنيل يجرى بمصر والمطر فيها ليس عماد الحياة .

وقوله « على حسرات » ؛ يعنى أنه حين تغيب الشمس تكثر همومه ، وكأنه يتقلب على حسرات ، وما أكثر ما قال العرب فى هذا المعنى ، وقديماً قال النابغة :

فبت كأن العائدات فرشن لى هَراساً بهيُعْلَى فراشى ويُقشب(٣)

وتشبيه نظرات المحبوبة بالسحر تشبيه قديم ، أما الفخر فقد ذكر البارودى العمد المرفوعة وهو فى القاهرة ، ويذكر النار على عادات البدو فى جلب الضيفان . ونراه فى الحكمة يقول : إن الإنسان لا يعد طليقاً فى حياته وهو فى أسر المنون ، وهذا مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

---

(١) ضلة : أى ضلالا منهم فى زعمهم هذا .
(٢) السفر : جماعة المسافرين .
(٣) الهراس : الشوك . ويقشب : يجدد .

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد[1]

وشتان ما بين البيتين ، فبيت طرفة أمتن . وأما أن الأيام منازل وأنّا فيها على سفر فمعنى قديم مطروق ، وقد تكرر فى أقوال الزهاد والوعاظ .

هـ ــ الرثاء

ولم يرث البارودى إلا صديقاً أو قريباً . فلم يكن رثاؤه مفتعلا أو من شعر المناسبات ، وإنما كان منبعثاً عن عاطفة صادقة ، وقد تمثل فى رثائه كل ما يخطر ببال الراثى : من تفجع ، وشكوى من الزمن والحياة وسخط عليهما وإظهار لمحاسن المرثى ، وبعض الحكم يتأسى بها الشاعر أو يعظ غيره ، ويقدم العزاء أحياناً لأهل الميت : وإن لم يلجأ البارودى إلى الوقوف على سر الحياة الأخرى ، وأن يستشف ما بعد الموت كما كان يفعل شوقى .

وقد يأتى البارودى ببعض المعانى القديمة فى قصائد الرثاء كأن يدعو الله أن ينزل الغيث على قبر الميت ، وما شابه ذلك من الصيغ التقليدية المعروفة . وهو يظهر الجزع والحزن الشديد دون مبالغة جارفة فى النعوت التى يضفيها على الميت . وجزعه وحزنه يدلان على عاطفة مشبوبة ، وقلب وفى ، ومما زاد رثاءه حرارة أنه قال معظمه وهو فى المنفى فزاد فى أساه لوعة النوى عن الوطن ، وحرمانه التزود من الميت بنظرة أو حديث ، ويدعو هذا إلى توجيه الكلام للشامتين به فى نكبته ومحنته ، ويظهر لهم التجلد فى أخريات قصائده ، وأنه لا يزال صلب العود ، ولا سيما إذا كان الميت من ذوى قرابته .

وإذا استعرضت مراثيه وجدته رثى أصدقاءه الأدباء الذين كانت بينه وبينهم آصرة محبة ووداد ، وتقدير ، وتفاهم ، مثل أحمد فارس الشدياق وعبد الله فكرى وحسين المرصفى ووجدته رثى : بنته ، وزوجه ، ورثى والده ، وإن كان قد توفى وهو صبى ، ولذلك جاء رثاؤه لوالده خالياً من العاطفة فيه كثير من الفخر ، وليس فيه تفجع الحزين ، ولا حسرات الفراق ، وبه كثير من المبالغات غير المقبولة .

---

(١) الطول : الحبل .

و — المدح

واقتصر فى مدحه على ولاة مصر فى عهده : إسماعيل ، وتوفيق ، وعباس الثانى ، وهو فى مدحه لا ينسى مصر ، وموقف الوالى منها ، وما قدم لها ، أو ما يرجى على يديه من خيرات لمواطنيه ، فيمدح توفيقاً لأخذه بالشورى والعدل ، ويستطرد إلى مدح نظام الشورى ، وأنه من تعاليم الإسلام ، وأن الأمة التى لا تأخذ به مصيرها إلى الانهيار ، والملك الذى لا يتبعه ملك غير عادل ، وملكه سرعان ما يدب إليه الضعف . وهو فى مدحه يذكر عدله وأريحيته وما يرجى على يديه من نفع ، وقد مدح عباساً لأنه عفا عنه وأعاده إلى وطنه . أما إسماعيل فقد مدحه حين ولى على أريكة مصر ، وبشر البلاد بعهد جديد وقدم نفسه لإسماعيل وأطراها ، وأظهر استعداده لخدمته ، وخدمة وطنه . هذا ولم يغفل أن يثنى على كل ممدوحيه ، وينعتهم بكرم الأصل وحب الخير والعدل إلى آخر هذه الصفات المعروفة والمعانى المطروقة .

ولم يكن البارودى شاعراً مداحاً متكسباً بشعره ، كما درج على هذه العادة الشعراء فى الأدب العربى ، ولكنه كان أميراً فارساً عفيفاً يقول الشعر للتعبير عن خلجات فؤاده . وهو إذا مدح لم يقصد بمدحه العطاء . وإنما للتعريف بمنزلته . أو الشكر على يد أسديت إليه ، أو حث على مكرمة . ومديحه خال من المبالغات المذمومة ، والنعوت الموهومة ، وهذا طبيعى ! لأنه لم يقصد بمدحه صلة أو عطية ؛ لأن الشعراء إنما لجئوا إلى هذه المبالغات ظناً منهم أنها تزيد فى عطائهم ، وأن نفس الممدوح تسر لها ، فيغدق عليهم جزيل الهبات . ومع كل فمدائح البارودى قليلة جداً — إذا قيست بشعره كله .

ز — الفخر

وقد افتخر البارودى كما عرفت بنفسه ، وحسبه ، وافتخر كذلك بشجاعته وفروسيته . وقد أكثر من القول فى هذا المعنى ، وله فيه مبالغات سخيفة ويبين فيه أنه محسود المكانة ، وأنه فريد عصره ، وواحد دهره .

ح — الزهد

ولعل قوله فى الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التى غلبه فيها اليأس على أمره ، وهو وحيد شريد يعانى غصص الفراق والنوى ؛ وإلا فهذه النفس الطموح التى خاطرت وغامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت وتنعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد فى الحياة ، ولعلها لم تزهد إلا مرغمة . وعلى كل فما قاله فى الزهد قليل مما يدل على أنه أثر لنوبات كانت تعتريه ، فيتشاءم من الدنيا ، ويتذكر الموت والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغواية والجهل ، ويذكره بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء وأصحاب عروش وضياع ، ذهبوا وذهبت دنياهم الحافلة باللذات ، وعمرت منهم القبور ، ولم يَذُد عنهم الموت مالهم ولا جاههم . . . إلخ هذه المعانى التى استنفدها من قبل أبو العتاهية ، وصالح ابن عبد القدوس وأضرابهما .

ومما يتصل بهذا الموضوع مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد مدحه بقصيدة طويلة يتوسل فيها بجاهه ، ويطلب شفاعته ، ويرجو الرحمة والمغفرة من الله بسببه .

ط — الحكمة

وقد أكثر البارودى من قول الحكم ، ومعظمها حكم غير مبتكرة ، وقع عليها السابقون ، وصاغها البارودى صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم ، وقد ورد له كثير من الأبيات السائرة حتى صارت أمثالا كقوله :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محبب

وقوله :

وقليلا ما يصلح المرء للمجد إذا كان ساقط الأجداد

وقوله :

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته فما لصروف الدهر يوسعها سبا

وحكمه على العموم قريبة المأخذ ، ليست فيها فلسفة عميقة ، ولا تدل على

مذهب فى الحياة ، ومصيرها ومصدرها ، أو على نظرة عامة شاملة للكون وإنما هى نظرات عابرة ليس فيها تحليل دقيق ، ولا سبر لأغوار الحياة والمجتمع ونفسيته ، ولكنها حلوة الصياغة خفيفة على الألسنة ، متقنة السبك .

٤ — الشاعر المجدد

ا — الوصف

على أن كل هذا لا يعنى أن شعر البارودى كله تقليد للقدماء فى أغراضهم ومعانيهم وأخيلتهم ، فالبارودى قلد القدماء أولا ثم استقلت شخصيته عنهم فى كثير من المواطن ، واتضحت هذه الشخصية ممثلة عصرها ، وحياة صاحبها ، فقد ذاق البارودى حلو الزمان ومره ، وارتفع فى مناصب الدولة حتى رئاسة الوزارة ، ثم شرد ونفى ، وقضى زمناً طويلا يتحرق فيه شوقاً إلى وطنه وأهله ، ويتحسر على أيامه الخاليات ، وينتدب فيه حظه ، وينعى على الأصدقاء الكاذبين خياناتهم ، ويذم الحياة ويكيل لها السباب . وهو فى كل هذا صادق الشعور يصف ما به على طبيعته ، فبرزت شخصيته واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

وللبارودى تجديد ملموس فى التعبير عن شعوره ، ومشاهداته ، وله معان جديدة وصور لم يسبق إليها ، فالبارودى عنى بالوصف عناية فائقة حتى أفرد له قصائد بعينها . ولقد كان الوصف من الأغراض القديمة ، ولكن كان يأتى عرضاً فى ثنايا القصائد . أما البارودى فكان يصف لمجرد الوصف ، ولأن شاعريته ، وحواسه المرهفة ، وتذوقه للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر ، وإلى وصف مشاهداته ، لا كما هى فى الطبيعة ، ولكن يخرجها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره .

كان البارودى مفتوناً بالطبيعة ، يرى فى كل سطر من شعرها الخالد آية من آيات الجمال عليه أن يترنم بها ويظهر محاسنها للأجيال من بعده ، ويترجمها للناس حتى يعجبوا بها كما أعجب ، وديوانه يغص بالموصوفات .

ويعد البارودى من أكثر شعراء العربية وصفاً ، بل يعد فى الطليعة . فوصف مظاهر الطبيعة كلها : الليلة العاصفة ، والريح الزفوف ، والسماء الحالية بالنجوم ، والبحر الهائج الغاضب ، والجبل والغابة ، والريف الهادئ الوادع ، والزرع النضير ، والنيل ، والساقية ، والطيور المزقزقة . . . إلخ .

والبارودى فى وصف الطبيعة مصور ماهر ، دقيق فى كل ما يتناول من وصف ، ولكنه لا يندمج مع الطبيعة ويستنطقها ، ويعيد إليها الحياة ، بل يقتصر على نقلها إلينا ملونة بشعوره ، فى خطوط واضحة سريعة ، لا تعمق فيها أو طويل وقوف على المشاهدات . ومعانيه قريبة ، وخياله دان لا إغراب فيه ولا شرود ، كل هذا فى دقة حس ، وتدفق شعور .

وقد تميز البارودى فى وصف الأشخاص ، وهذا من الموضوعات النادرة التى مهر فيها قلة من فحول الشعراء كابن الرومى ، وقد أجاد كذلك فى وصف المعارك حتى كأنك تشهدها . ولم يقتصر وصفه على الطبيعة بل وصف كل ما حرك شاعريته . وصف السجن الذى عانى منه ما عانى ، ووصف القطار ووصف الأهرام وأبا الهول وفتح بذلك الطريق لمن أتى بعده كشوقى وغيره ، وهو وإن لم يتعمق فى وصفه ، ويستعرض التاريخ المجيد كما فعل شوقى من بعده ، إلا أنه برهن على أنه شاعر يرى الجمال أو العظة فى كل ما حوله من مناظر ، وأن شاعريته حساسة مرهفة ؛ لأن مثل هذا الوصف لا تحفزه إليه رغبة فى صلة ، أو تقرب من أمير ، وإنما هو إشباع لرغبة فنية تجيش فى صدره ، وتحاول شاعريته الإفصاح عنها . ولذلك عد باب الوصف من خير أبواب الشعر ؛ لأنه فضلا عن نشره ما طوى من آيات الجمال ، أو ما خفى على عيون الناس منها ، فإنه يدل على نفسية الشاعر ، وقدرته وخياله ، وهو خير محك للتمييز بين الشعراء .

وإذا كان ثمة مأخذ على موصوفات البارودى فإنها لم تتعد المحسوسات ، ولم يعن بالمعنويات ، وقد اهتم بالمرئيات خاصة .

ب — الشعر السياسى

ومن الأغراض القديمة التى خلع عليها البارودى لباس الجدة ، وظهرت فيها

شخصيته واضحة جلية ، تفصح عن نفس أبية متمردة على الظلم والطغيان محبة للعدالة والشورى والمساواة بين الناس ، ذلك الشعر السياسى الوطنى الذى دفعه إلى مركز الصدارة بين أبناء شعبه ، وجعل منه زعيماً محبوباً ، وهو ذلك الشعر الذى ألقى به فى غيابة السجن ، ورمى به بعيداً عن وطنه ، ويا ليته كف عن مثل هذا الشعر ، وهو يتجرع غصص النفى والتشريد والمرض ، بل زفر زفرات حارة كادت تحرق الطاغين المعتدين بشواظها الملتهب ، ولذلك طالت غيبته عن دياره وخاف أولو الأمر من عودته حتى لا يعيدها جذعاً مشبوبة الضرام ؛ ولما هدأت ثورته ، وضعفت مُنَّته ، وكسرت حدته ، وخفت شرته ، واشتكى ما به من ضعف وهزال ، ودب إلى جسمه دبيب الفناء ، أمنوا جانبه ، فأعادوه إلى وطنه .

كان البارودى طموحاً يعتلج فى حنايا صدره أمل كبير يود أن يجدد به مجد أسلافه ، وقد رزق العقل الذكى ، والفؤاد الأبى ، والعلم والبصيرة ، فلم لا يصل إلى ما يريد ؟ ولكن ما كل ما يشتهيه الإنسان ويأمله يسهل نيله . وقد وقفت فى سبيل تحقيق هذا الأمل عقبات شتى ، وظل الأمل يساوره على الرغم من هذه الصعاب . ولقد أخفق البارودى فى تحقيق ما يصبو إليه ، واعتذر عن إخفاقه :

وإنى امرؤ لولا العوائق أذعنت لسطوته البـــدو المغيرة والحضر

ويلوح لنا أن البارودى كان بطبعه محبًّا للحرية ، متمرداً على الظلم ، شأن كل شجاع شريف ، ولعل للوراثة وللنشأة التى نشئها أثراً فى هذا ، ولقد غذاها ما حفظه من شعر الحماسة والقوة عند العرب ، وهم أبطال الحرية فى فيافيهم الواسعة ، وقد تغنوا بحروبهم ، وشجاعتهم ، وانتصاراتهم وأنفتهم ، وكان شعرهم سجلا وافياً لمكارم أخلاقهم ، وقد قرأه البارودى وهو بعد شاب غرير ، فرسخت هذه الصفات فى ذهنه ، وشب مطبوعاً عليها ، يتمثلها نماذج يحتذيها ، ويرددها فى شعره ، ويود أن يحققها عملا فى الحياة .

ولقد صور البارودى الفساد الذى شاع أمره فى مصر ، واضطراب أحوالها ، والفزع الذى ملأ قلوب الناس ، من استبداد إسماعيل وتوفيق ، وإرهاقهما الأمة بشتى ألوان الإرهاق ، وبتبديد مال الشعب الكادح يمنة ويسرة على مظاهر خداعة وشهوات خاصة ، فتنبأ البارودى بالثورة قبل حدوثها ، مما يدل على أن كان شديد

الصلة بزعمائها ، وأن الناس قد ضاقوا ذرعاً بهذا الفساد ، وبرموا به ، ولابد من سبيل إلى الإصلاح . وقد عرفنا فيما سبق كيف أن البارودى كان من زعماء الثورة ، وأنه كان يطمع فى الانقلاب ، بل كان يحض على الثورة فى شدة بقوة وحماسة ، ولما رأى تدخل فرنسا وإنجلترا أراد أن يتراجع ، وأخذ ينصح زعماء الثورة بالتريث حتى لا تسوء العواقب ، بيد أن التيار كان شديداً ، فلم يجد بدًّا من متابعة الثورة والسير فى الشوط حتى النهاية . كان البارودى يكره الاستبداد والطغيان ، مع أنه كان فى زمن ألف الناس فيه الطغيان . استمع إليه يقول ما لم نسمعه من شاعر معاصر ، بل من كاتب من كتابنا مع طغيان حكامنا وفساد أمرهم فى العهد البائد :

يأيها الظـالم فى ملـكه أغرك الملك الـذى ينمد
اصنع بنا ما شئت من قسوة فالله عـدل والتلاقى غد

وكان من الداعين إلى الشورى ، وأن تشترك الأمة فى تدبير شئونها ، حتى لا يستبد الهوى بالحاكم فيجمح ويشتط وتفسد الأمور ، وقد مدح توفيقاً لما ولى أمور مصر لأنه كان قد وعد وهو ولى للعهد أن يجعل الشورى أساس حكمه ، وكان البارودى من الداعين إلى اليقظة ومحاسبة الحكام حتى لا يستبدوا :

وكذاك السلطان إن ظن بالأمـ ـة عجزاً سطا عليها وشدا

ولما أخفقت الثورة ، وتخاذل الثوار ، وخان بعضهم بعضاً ترك هذا الإخفاق وذياك الخذلان فى نفس البارودى مرارة ظل أثرها فى لسانه مدة ، فأخذ يلفظ بشعر مرير فيه أثر الموجدة والغضب من مثل قوله :

كنا نود انقلاباً نستريح بـه حتى إذا تم ساءتنـا مصايره

ثم أخذ البارودى يذم الثورة والثوار ، ويحاول أن يتنصل من تبعاتها ، وأن ما قاله كان بسبب ما دب بينهم من شحناء وأنهم غدروا به . وحاول أن يبرئ نفسه ويعلل هزيمته ، ويصف حنث الثوار فى أيمانهم ومواثيقهم ، ويتندم على زعامته ، ثم يصف فزعهم وفرارهم فى المعركة . وقد اتهم البارودى بأنه يطمع فى الملك ، وأنه يحاول ثل العرش وخلع توفيق فأنكر هذه التهمة بعد أن أخفقت الثورة ملتمساً أسباباً شتى لاشتراكه مع الثوار غير طمعه فى العرش .

هذا الشعر السياسى ، وهذه النفس المتوثبة الطموح ، وهذه الثورة المتأججة التى انتهت بصاحبها إلى النفى والتشريد هى من الجديد فى شعر البارودى ، بل اعتبرت جديدة فى الأدب العربى كله . وإن كان المتنبى قد حاول من قبل ملكاً وثار على الدنيا التى مكنت للعبيد والخصيان والعلوج[1] فى الأرض يسوسون شعوباً ضعيفة ، وجعل يقول :

فى كل أرض وطئتها فُدُم[2] ترعى بعيد كأنها غنم

فإنه اكتفى بالإشارة والتلميح وبالزفرة الحارة ، وبملامة الدهر ، ومحاربته له فى مطلبه ، ولكن البارودى كان يطلب شيئاً آخر : كان يطلب الحرية لقومه . والعدل والمساواة ، وكان يطلب العيشة الهنية فى ظلال الحرية ، ولا عليه إذا طلب بجانب هذا ملكاً ليحقق لقومه آمالهم . وهب البارودي قلد المتنبى فى بعض معانيه ، فهل كان اقتحامه نار الثورة تقليداً ؟ أوَ ليس شعره هذا وليد الحوادث وصدى لها ؟

وكان البارودى من أوائل الشعراء الذين تغنوا بمصر وأهلها ، وحرصوا على خيرها ونفعها . إنه يمثل بشعره فى مصر روح القومية الجديدة التى سرت فى شعوب الأرض وجعلتهم يطالبون بالحرية والاستقلال ، ويشيدون بأوطانهم ، ويتغنون بمآثر قومهم . وقد تمثلت هذه الروح فى البارودى على غير انتظار ، وعلى غير سابقة من شعراء وطنه وزمنه ، وبهذا احتل البارودى مكانة لا تدانى فى الشعر الحديث ، هى مكانة المجدد ، والباعث ، ولقد كان يحز فى نفسه أن يكون جزاء وطنيته وإخلاصه النفى والتشريد :

لم أقترف زَلة تقضى على بمـا أصبحت فيه فماذا الويل والحَرَبُ
فهل دفاعىَ عن دينى وعن وطنى ذنب أدان به ظلماً وأغترب

لقد زاده النفى حبًّا لوطنه وتعلقاً به ، وترديداً لمحاسنه ، ويتمثله على البعد جنة دانية القطوف ، عبقة الشذى .

---

(١) العلوج : جمع علج وهو الرجل من الأعاجم .

(٢) فدم : جمع فدم وهو الغبى الجاهل .

حـ ــ الغزل

ولم يكن نسيب البارودى كله قديماً ، بل ترفع فى نظرته إلى المرأة ، فحسبه منها نظرة . وتمدح بعفته فى حبه :

والعشق مكرمة إذا عف الفتى عما يهيم به الغوى الأصور[١]
يقوى به قلب الجبان ويرعوى طمع الحريص ، ويخضع المتكبر

وقد فطن أحياناً إلى أن المرأة بها من أنواع الجمال غير هذه السمات المادية فقال :

لطيفة مجرى الروح لو أنها مشت على ساربات الذر ما آده الحمل[٢]

د ــ الهجاء

كما جدد البارودى فى هجائه ، فلم يقتصر على الهجاء لخصومة بينه وبين شخص معين وهو ما يسمى بالهجاء الشخصى . بل أكثر من الهجاء الاجتماعى الذى يقصد به تجسيم عيب من عيوب المجتمع وتصويره فى أبشع صورة رغبة فى الإصلاح . وقد يتمثل هذا العيب فى شخص بذاته فيهجوه الشاعر ، وليس الشخص مقصوداً لذاته ، وإنما المقصود هى هذه السوءة الاجتماعية ، ولن يبلغ الشاعر مرتبة الشعراء العالميين فى الهجاء ما لم يصل بهجوه إلى هذا النوع الاجتماعى ، وقد لجأ شعراء الغرب إلى التمثيل يصورون فيه هذه المثالب الإنسانية ويجسّمون العيوب تجسيماً يحمل الشعب على الاشمئزاز منها ، والبعد عنها كما فعل شكسبير وموليير . ولم يلجأ البارودى إلى التمثيليات لأنه لم يسبق إليها فى الأدب العربى ، وحسبه أنه التفت إلى هذا النوع من الهجاء ، فتراه ينعى على قومه شيوع النفاق فيهم وظلمهم وغدرهم ، وينعى الجشع والطمع والحرص على الحياة فيصب لعنته على بخيل جشع ، ليس مقصوداً لذاته وإنما اتخذ مثلا يمثل الجشعين ، وتراه يصور صخب الجيران ، وعدم مراعاتهم لسواهم فى أسلوب تهكمى ظريف .

---

(١) الأصور : المنحرف عن الهدى والرشاد ، من الصور وهو الميل .
(٢) آده الحمل : أثقله وأعجزه .

٥ ـ منزلته

يعد البارودى باعث النهضة الشعرية فى العصر الحديث ، لأنه ارتفع به فجأة إلى منزلة الفحول من الشعراء العباسيين ، وأعاد له ديباجته القوية ، وفصاحة عبارته ، ومتانة قوافيه ، وخلصه من كل تلك القيود والأغلال التى كان يرسف فيها إبان عصور الضعف من حلى لفظية ومعنوية يختفى وراءهما المعنى الغث ، والفكرة المبتذلة . وجدد فى كثير من أغراضه على غير مثال سبقه من معاصريه ، وضرب نماذج صالحة لمن أتى بعده من الشعراء فى أبواب الوصف والشعر السياسى ، والهجاء الاجتماعى ، والرثاء ، والمديح . وأظهر أن للشاعر رسالة سامية وهى أن يعبر بإخلاص عن خلجات نفسه وتجاربه فى وضوح وقوة ، كما خلص الشعر من الوصمة التى لحقت به آماداً طويلة وهو أنه وسيلة للتكسب فترفع عن المديح الباطل ، والهجاء الشخصى وقال بيته المشهور :

والشعر زين المرء ما لم يكن وسيلة للمدح والذام

وعلى الرغم من أن البارودى نهج نهج الأقدمين فى شعرهم ، من حيث الغرض والأسلوب ، وبناء القصيدة ، فإن شخصيته كانت متميزة تمام التميز ، ومثل عصره وبيئته فى وضوح وجلاء . وهو وإن لم يفد من كل الثقافات الموجودة فى زمنه ومن اللغات التى عرفها فائدة كبيرة ذات أثر واضح فى شعره ومذهبه ، إلا أنه عوض هذا النقص بصدق عاطفته ، ووضوح شعره وإحساسه ، ونصاعة بيانه ، وبمحاولته التجديد قدر استطاعته فى معانيه وأخيلته وموضوعاته ، وله قطع فى الوصف تقف جنباً إلى جنب مع كثير من الأدب العالمى . وحسبه ذلك فخراً بل إن من الإنصاف أن نقول كما قال الدكتور هيكل فى مقدمة ديوانه « إن شعر البارودى كان فى عصره جديداً كله ، كانت محاكاته للأقدمين جديدة وكانت معارضته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول على مثالهم جديدة ، فقد هوى الشعر العربى قبله إلى درك من الانحلال جعله بالنسبة إلينا نسياً منسياً » .

ولقد أثر البارودى فى الشعراء الذين أتوا بعده تأثيراً كبيراً . واتخذوه نموذجاً يحتذى ، ومثلا يتطلعون إليه ، من أمثال صبرى وحافظ إبراهيم والرافعى وأحمد نسيم وعبد الحليم المصرى ومحمد عبد المطلب وأحمد محرم وأحمد الكاشف والجارم وغيرهم وتتميز هذه المدرسة بالرصانة ، وقوة الأسلوب ، وسلامة القافية ومتانتها ، والاحتفال بالنغم الموسيقى ، واللفظ المنتقى ، ووضوح المعنى والصورة . والسير على نهج الأقدمين فى أسلوب القصيدة وأغراض الشعر إلا ما اقتضته ظروف البيئة والعصر والحوادث . ولم يفكر واحد من هؤلاء فى أن ينتكس شعره فيرجع إلى عصور الضعف ويقلد شعراء البديع وحلاه ، إلا ما ندر فى شعر إسماعيل صبرى .

ولقد حاول شوقى أن يجدد ، واحتفل بالمعنى أول حياته الشعرية ، ولم يهتم بالصياغة واللفظ ، فلم يحتل بين الشعراء المنزلة التى كان يرجوها على الرغم من أنه كان شاعر الأمير ، ولم يتبوأ مركز الصدارة إلا بعد أن نفى وعكف فى الأندلس على دراسة شعر القدماء وأدبهم ، فقويت عبارته ، وحسنت صياغته ، وهذا لا شك راجع إلى تأثير مدرسة البارودى وسيطرتها فى عالم الشعر .

وعلى الرغم من وجود المدرسة الحديثة وانتشار أشياعها ، تلك التى يتزعمها مطران والعقاد وشكرى والمازنى ، والتى تهتم بالمعنى أولا ، ولا تحفل كثيراً بالصياغة والموسيقى ، والتى ترى القصيدة وحدة مترابطة الأجزاء ، والتى جددت فى أغراض الشعر ومعانيه وأخيلته ، فلا تزال هناك بقية من الشعراء يقتفون أثر البارودى ، ولا يزال جمهور الأدباء يطرب لشعرهم ويتطلع إليه .